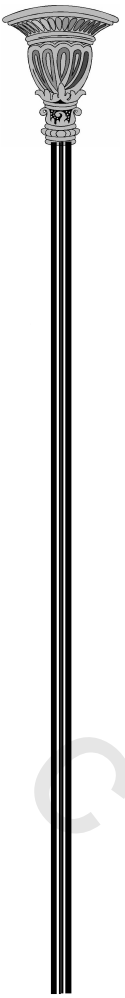

الخاتمة

obeikan.com

بعد هذا العمل الذى قدمناه والذى يدور موضوعه حول "مفهوم الحقيقة عند "برادلى" "، لابد أن نقف وقفة قصيرة نتأمل فيها فكر "برادلى" مرة أخرى، ونتبين مكانة فلسفته بوجه عام والنتائج التى انتهت إليها هذه الفلسفة .

يعد "برادلى"، كما ذكرنا سلفاً، من أعظم مفكرى الحركة المثالية الجديدة التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وهو يحتل فى الفكر الإنجليزى الحديث منزلة رفيعة، وربما أرفع منزلة على الرغم من أن أعماله الفلسفية مازالت تثير نزاعاً كبيراً. فقد كانت طبيعته منطوية منعزلة ولم يشغل منصباً تعليمياً، ولم تكن له واجبات تستحق الذكر، كذلك لم يكن تواقاً إلى النشاط العملى، وإنما ظل مغلقاً على ذاته منصرفاً إلى حياة التأمل، وقضى حياته كلها بين جدران الجامعة فى منفى اختيارى عن العالم. ولقد كانت عزلته عن الحياة متمشية مع تحفظه العقلى الشديد فى بعض الأحيان، لكنه كان يتميز بالقدرة على النفاذ إلى بواطن الأمور وتلك هى القدرة الخلاقة الأصيلة. ولقد كان تأثيره على الفلسفة الإنجليزية المعاصرة لا حد له، ومازال هذا التأثير قوياً إلى اليوم، فى الوقت الذى أخذت فيه الحركة المثالية تضمحل تدريجياً.

ومن هنا وجدت المثالية المطلقة فى "برادلى" أفضل من يمثلها بين الإنجليز، وذلك لأنه توسع فى اتجاه العمق بفضل النظرة المثالية إلى العالم ومحاولة بناء نسق متكامل يربط بين الأشياء، ويوحد التناقضات فى كلٍّ واحد شامل. وقد أدت فلسفة "برادلى" إلى نتائج بالغة الأهمية وهى على النحو التالى :

١- أراد "برادلى" فى بحثه عن الحقيقة أن يضع معياراً ميتافيزيقياً أو معياراً مطلقاً يثبت من خلاله أن الواقع ذاته نسق مترابط، ويظهر هذا المعيار فى فكرة "عدم التناقض". فقد رأى أن الحقيقة تعانى من التناقض الذاتى لأنها تنطوى فى داخل ذاتها على ما يناقضها، أى إلى شىء مغاير لها يقع خارجها. ولهذا فإن معنى سير الحقيقة فى طريق اكتمال ذاتها إنما هو محاولة بلوغها الواقع الكلى الذى ينتفى معه كل تناقض وتعارض، ومن هنا فإن معيار الترابط يسعى دائماً إلى هدف يحقق الفكر من خلاله غايته القصوى ألا وهى المطلق.

٢- بين لنا الواقع كخبرة للشعور أو كخبرة مباشرة، فى بداية الأمر، ولهذا يعانى من التناقض ويصبح مظهراً، بمعنى أن الشعور المباشر لا يشير إلى أى شىء خارجه غير أنه حين يطرأ الانقسام على وحدته وحين تقوم خبرات أخرى "كخبرة الفكر والإرادة" بداخله – بحيث تشير كل خبرة من هذه الخبرات إلى ما يناقضها وما تفتقر إليه – فإن هذا الشعور يستحيل إلى شىء ناقص وبالتالى يصبح مظهراً أى سوف يشير إلى حقيقة أخرى أعم منه وأشمل، وهى حقيقة المطلق التى تتحقق عن طريقها اكتمال الخبرات الأخرى التى تتخذ منها أساساً تقوم عليه. وكمال هذه الخبرات إنما يعنى عودة الشعور مرة أخرى إلى "وحدته الأصلية" بعد أن يكون قد تحول من مجرد "شعور مباشر" قائم بذاته، إلى كل واضح المعالم. وهذا هو الكل المطلق أو الواقع فى كماله الأسمى.

٣- كذلك حدد ماهية الحكم بأنها فصل بين الموضوع والمحمول، وهذا الفصل ينطوى على نوع من النقص بالضرورة، ولذا سماه بـــ "المظهر". وأكد أن الحقيقة تنتمى إلى عالم المظهر لأنها تصاغ على صورة حكم، بينما الواقع الذى يقابل المظهر هو وحدة لا انفصال فيها. وكل انفصال يطرأ على هذه الوحدة يحيل ذلك الواقع إلى مظهر – هو بطبيعته ناقص – وكل حقيقة فيه نسبية.

٤- أما علاقة المظهر بالواقع فقد وضح لنا "برادلى" هذه العلاقة من ناحية المظهر، وهو فى نزوعه المستمر إلى كماله الخاص. فإذا كانت المظاهر هى مظاهر لهذا الواقع الكلى، فكل مظهر منها لا يزيد عن كونه مظهراً يوجد مع باقى المظاهر الأخرى. بمعنى أنه ليس لأى أحد قيمة تفوق قيمة المظاهر الأخرى، فكل منهم بمثابة عامل غير مستقل بذاته بحيث يشير إلى الكل الذى يحكمه ويحكم العوامل الأخرى.

ومن ناحية أخرى، لا يعنى نزوعُ المظهر أو حنينُه إلى كمال وجوده، فناءه فى الكل، بل يعنى مجرد الاندماج فيه أو معه. وهذا الاندماج يدل على اتحاد المظهر مع الواقع. وعلى هذا الأساس يشمل الواقع داخله كل موجود جزئى، وكذلك كل تفاصيل أو مراحل التحقق التدريجى لكل أجزائه وقد بلغت كمالها الأقصى.

٥- ومن هنا، فقد رأى "برادلى" أن الواقع هو كل مظاهره بمعنى أن المطلق أو

الواقع يظهر فعلاً ولكن ظهوره لا يتعدى المظهر "الجزئى" أى أن ما يظهر ليس هو كل الواقع. ونتيجة لذلك فهو يشير إلى فكرة "درجات الحقيقة والواقع". فالمظهر فى مجال الحقيقة يشير إلى سائر المظاهر الأخرى باعتبار أنه مرتبط بها بمقتضى "فكرة العلاقات". ويحمل هذه العلاقات على الوجود الفعلى للمظهر. وتتكون بذلك الأحكام النظرية التى تسهم تدريجياً فى بناء حقيقته. وإذا أنعمنا النظر فى كيفية بناء هذه الحقيقة سنجد أنها تتم بطريقين : طريق "تحقيق الانسجام" داخل المظهر، وطريق "اتساع أو شمول" هذا المظهر فى نزوعه المستمر إلى الاندماج فى الواقع. وبقدر ما يحقق المظهر انسجامه وشموله تكون درجة كمال تصوره أو درجة حقيقته.

غير أننا إذا ما تأملنا بدقة "حقيقة المظهر"، سنجد أنها لكى تظل حقيقة يجب أن تكون فى صورة تصورات أو أفكار تعبر عن وجودها ومضمونها. فإذا قلنا "مثلاً" أ هى ب ، فإننا فى هذا الحكم نقول شيئاً ما (وهو ب) عن (أ) أى شيئاً ما أقل من (أ). فى حين أننا إذا قلنا أن أ هى أ – بحيث يكون الموضوع والمحمول واحداً – فإننا فى هذه الحالة لا نقول شيئاً عن أ على الإطلاق. فلابد إذن، من أن يظل تصور الشىء شيئاً ما أقل من الشىء نفسه على نحو ما يظل وجوداً فعلياً.

٦- ولكى يكون لحقيقة المظهر وجود لابد من أن تظل ناقصة. أى لابد أن يدل الـ "ماذا" دون الـ "هذا" بتعبير "برادلى". وهنا نصل إلى أساس الالتقاء بين "الحقيقة والخطأ" لأن الحقيقة ليست صادقة صدقاً مطلقاً. بمعنى أنه يمكن وصفها بأنها "خطأ" بدرجة ما. والخطأ أيضاً ليس خطأ مطلقاً بل لا يخلو من الحقيقة ولو أنه يمثل أدنى درجاتها. إن الحقيقة والخطأ ينتميان معاً إلى مجال واحد، غير أن الفرق بينهما هو أن العنصرين فى حالة الحقيقة منسجمان وفى حالة الخطأ متنافران. ومادامت كل حقيقة ناقصة هى خطأ بدرجة ما، فالخطأ يمثل أيضاً حقيقة كما ذكرنا. وفى إطار هذه الفكرة تقاس درجة كل حقيقة من حقائق الأشياء بدرجة واقعيتها، وبالقياس إلى الحقيقة الكاملة التى تعبر عن الواقع. ويتحقق ذلك من خلال اتحاد خاصيتى "الانسجام والشمول".

openkan.com

٧- والمظهر فى مجال الحقيقة يتمتع بدرجة ما من درجاتها، أو درجة من درجات الكمال النظرى ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الواقع أو المطلق.

وإذا انتقلنا إلى ناحية الوجود الفعلى للمظهر، سنجد نفس الشىء أى سنجد أنه يتمتع بدرجة ما من درجات الواقعية. فإذا تناولنا المظهر من جهة أنه يمثل واقعة ما فى الزمان والمكان، فسنجد أنه يشير بصفة دائمة إلى ما ينبغى أن يكون عليه وجوده، بقدر تحقيقه لانسجامه أو اتساقه الذاتى الذى يسير فى نفس الوقت مع انتشاره أو اتساعه فى المكان، ومن خلال الزمان تكون درجة واقعيته. هذا فضلاً عن أن مقياس "الاتساق والشمول"، الذى يحدد درجة حقيقة وواقعية المظاهر، لا يسرى فقط على المظاهر الدنيا بل يسرى أيضاً على المظاهر العليا. فالواقع يتجلى فى عالم المظاهر، وما هو أكثر حقيقة وواقعية هو الذى يجد فى نظام "الكل" ما يعبر عن وجوده واكتفائه الذاتى.

٨- وعلى ضوء هذا التصور لـــ "حقيقة الواقع" نجد أن الفكر – عند "برادلى" – يتداخل مع الواقع بحيث يكون لكل منهما معنى خاص يتميز عن المعنى الذى يُفهم به عادة. فالواقع لن يكون مجموعة منفصلة عن الحوادث اللامعقولة بل إن مجرى حوادثه عقلى وتطوره ونموه يكشف عن تطور ونمو ذهن كامن فيه. والفكر لا يعود نشاطاً مجرداً مفارقاً، بل يتغلغل فى الواقع حتى يكون أشبه بالروح التى تجمع بين كل أطرافه فى وحدة شاملة، وتتعرف على نفسها فيه، وفى اختصار، يقترب كل من الجانبين من الآخر حتى تسود الوحدة بينهما، الفكر يصبح عينياً والواقع يصير ذهنياً. وبما أن الحقيقة تنتمى إلى مجال الفكر، فهى لا تدرك الواقع على ما هو عليه؛ أى فى وحدته غير المنقسمة بل تفصل بين عناصره. وطالما أنها تترك عنصراً من الواقع خارجها ولا تنقله إلى مجالها، فهى – بالنسبة لـــ "برادلى" – ناقصة وعليها أن تسعى إلى استكمال هذا النقص. ولكن مهما بذلت فى ذلك من جهد فلن يمكن استيعاب الواقع بما فيه من تنوع وثراء، ولكن إذا استطاعت الحقيقة أن تستكمل هذا النقص وتحقق كمالها؛ أى إذا عبرت عن الواقع بكل أوجهه فلن تعود عندئذ حقيقة بل تصبح هى الواقع ذاته.

٩- أما ما يخص المطلق، فقد رأى "برادلى" أن علاقة المطلق بمظاهره تفيد بأنه لا وجود للمظهر إلا فى داخل الكل المطلق، بحيث يسعى المظهر إلى كمال ذاته بهدف الاندماج فيه. ويمكن تطبيق نفس هذه العلاقة بين الذات الإنسانية باعتبارها مظهراً وبين الروح والإرادة العليا. ومن ثم يمكننا بالتالى التوحيد بين هذه الإرادة وبين المطلق. فالذات فى سعيها لتحقيق ذاتها من خلال تحقيق الكمال الحاضر للإرادة العليا، إنما تهدف إلى الاندماج فى الكل المطلق عن طريق اندماجها أيضاً مع هذه الإرادة. غير أنه إذا كان كل من "المطلق" وهذه "الإرادة" يمثلان حقيقة ما تعلو وراء وجودها الفعلى، بمعنى أنه لا يمكنها التحدث عن أى منهما فى حقيقته الكاملة؛ فإنه من الصعب – بحكم طبيعتنا كذوات إنسانية – أن نميز بين هاتين الحقيقتين أى الله والمطلق. ولا شك أن "برادلى" قد بنى هذا التمييز استناداً إلى ما ورد فى النصوص الدينية التى وصفت الله بأنه إرادة عليا، باعتبار أن الإرادة، من وجهة نظر "برادلى"، هى من قبيل "المظهر" الذى لا يرقى إلى مرتبة المطلق.

١٠- وعلى هذا الأساس، نظر "برادلى" إلى الدين – مهما كانت قيمته وضرورته فى مجاله الخاص – على أنه لا يعدو آخر الأمر أن يكون مرحلة مبدئية تمهد للميتافيزيقا. وكان ينظر إلى الله لا بوصفه الكائن الحقيقى الشامل لكل شىء، بل بوصفه مظهراً، أى على أنه أعلى المظاهر ولكنه مازال أقل من المطلق. أما المطلق فهو نتاج الشوق والتلهف، فهو المثل الأعلى الذى نصبو إليه وهو أعلى قيمنا. إنه، بالنسبة لـــ "برادلى"، ليس أعلى حقيقة وأسمى واقع فحسب؛ بل هو أيضاً أعلى القيم وهو مقياس كل جدارة.

بعد أن عرضنا النتائج الهامة التى يمكن استخلاصها من فلسفة "برادلى"، نقول : هل يعد "برادلى" بحق من أصحاب المثالية المطلقة ؟ هل نجح فى أن يقدم لنا فلسفة متكاملة تعبر عن الوحدة الشاملة التى تجمع بداخلها الفروق والاختلافات فى كلٍّ واحد شامل ؟ هل استطاع المطلق عنده أن يحوى بداخله كل هذه العناصر ويعبر عن تطور الوعى البشرى ونموه بصفة عامة ؟ هل قدم نظرية للحقيقة تعبر عن اتساق الكون فى كل مترابط بحيث يشير كل عنصر فيه إلى العنصر الآخر ؟

لقد كان تأثير "برادلى" من القوة بحيث لم يكد يفلت منه أى مفكر هام، ويمتد هذا التأثير فى جميع أطراف الفلسفة الإنجليزية المعاصرة آنذاك. فهو ظاهر فى أتباعه وخصومه على حد سواء، ومن بين أقرب الأتباع نجد "برنارد بوزانكت" الذى كان يدين لـــ "برادلى" بالكثير فى كتاباته الأولى، وتمثل فلسفته إعادة بناء مستقلة وتوسعاً وتطبيقاً لتعاليم "برادلى" الفلسفية. ونستطيع أن نقول، إنه أعاد مذهب "برادلى" إلى نقطة بدايته الهيجلية الأولى. فقد وسع من نظرته إلى العالم على أساس أوسع كثيراً، وطبقها وعرضها بكل ما فيها من نواح مثمرة فى جميع الفروع الفلسفية. وفى مجال المنطق، قد تأثر "بوزانكت" بـــ "برادلى" فى رأيه أن الحكم هو الصورة المنطقية الأولى والأساسية. فالحكم معنى يكون كلاً عضوياً وبالتالى لا يمكن فهمه إلا فى ضوء الوحدة الوظيفية لأجزائه. وعلى هذا الأساس، فالحقيقة لا توجد إلا فى نسق بحيث تكون علامتها المميزة هى الترابط، أى التوافق فى ارتباط جميع الأجزاء فى كل منظم، بحيث يبدو فى النهاية على صورة نسق متكامل، يصل من خلاله إلى المثل الأعلى أى المطلق.

والمطلق عند "بوزانكت" لا يختلف كثيراً عن المطلق عند "برادلى"، فهو المثل الأعلى الذى نصبو إليه، وهو النجم الذى يهدينا فى الارتقاء بطبيعتنا. وهو الوحدة العليا التى تشمل الخاص، والعام، والطبيعى، والروحى، والضرورة، والحرية؛ هذه الوحدة هى التى تتطلع إليها الميتافيزيقا. لكن نقطة الخلاف الرئيسية التى كانت موضع نقد، والتى لم تكن مقبولة لدى المثالية (وبصفة خاصة مثالية "كيرد" و"جونس") هى فكرة التقابل بين الواحدية والثنائية. صحيح أن الموقف الذى اتخذه "برادلى" – ومن بعده "بوزانكت" – يمكن أن يُوصف بأنه واحدى بمعنى ما، ولكنه بدا موقفاً ثنائياً واضحاً (من وجهة نظر أولئك الذين يمضون فى اتجاه الوحدة إلى حد استخلاص أبعد نتائجها). وهذه الثنائية مثل : ثنائية المظهر والحقيقة، والمتناهى واللامتناهى، والنسبى والمطلق. ولقد حاول "برادلى" مراراً أن يتغلب على هذه الثنائية ورأى أنها تصب فى النهاية فى تلك الوحدة الشاملة التى ينتفى معها أى ثنائية، أى وحدة المطلق الشامل لكل شىء غير أن المطلق عنده هو المطلق السكونى المفارق الثابت، وليس هو مطلق بحركة دائمة خلال مجرى العالم، الذى يكشف عن ذاته ويعبر عن نفسه فى أذهان متناهية.

ولذلك، فالحقيقة الواحدة أو الكلية التى أراد أن يصل إليها "برادلى" ليست واضحة تماماً للذهن البشرى للوهلة الأولى، إذ لا يرى الذهن إلا أوجهاً جزئية منها، ويتأمل هذه الأوجه فى تركيبها الخاص وفى طريقة وجودها الخاصة. لقد أدرك "هيجل" مبدأ كلية الحقيقة ووحدة الواقع. فالواقع – فى ماهيته النهائية – هو روح لا تُدرك خلال المراحل المتعددة للوجود والمعرفة إلا نفسها، ولا تكشف إلا عن ذاتها خلال مرورها بالعملية الجدلية للإدراك الذاتى. فهى الكل العينى، وهى وحدة المعرفة والوجود والحقيقة والواقع. كذلك فالمبدأ الروحى الكامن فى كل الأشياء الذى يحدثنا عنه "برادلى" هو شىء ثابت مقفل على ذاته، غير قابل لأى تطور، ولا يظهر كعملية حية أو دينامية تكشف عن نفسها بطريقة جدلية كما هو الحال عند "هيجل".

* * * * * *

obeikan.com